

صورة الآخر في الإسلام محمد عمارة أنموذجا

د/حليمة الشيخ /جامعة وهران1

مقدمة:

تندرج هذه الدراسة في إطار مسألة جدلية الأنا والآخر التي تستأثر اليوم باهتمام الباحثين على اختلاف مشاربهم وتباين توجهاتهم، وتدخل في صلب انشغالاتهم الفكرية. وإذا كان الفكر الفلسفي قد تطرق إليها منذ العصر اليوناني بوصفها مدخلا من مداخل محاولة فهم تركيبة الذات الإنسانية. فإنها حاليا قد تجاوزت حدود التفكير الفلسفي لتغدو إشكالية تدرسها مختلف المجالات المعرفية. ذلك أن سؤال الآخر صاحب سؤال الذات الذي اقتران بالوجود الإنساني. ولذا كانت الذات تحيل إلى الوجود وحاملة له.

وقد تبين للمفكر محمد الجابري-رحمه الله- أن مفهوم الأنا والآخر من المفاهيم الوافدة علينا من الفكر الغربي، وأن الفلسفة الأوروبية الحديثة هي أساسا فلسفة "الأنا" ("الذات"): الإنسان ذات في مقابل العالم الذي هو موضوع لها. والفكرة المؤسسة لفلسفة "الذات" هذه هي كوجيتو ديكارت: لقد شك هذا الفيلسوف الفرنسي في كل شيء و"مسح الطاولة" حسب تعبيره (طاولة فكره) مسحا ولم يبق لديه أي شيء آخر غير كونه يفكر: ومن هنا قولته الشهيرة: "أنا أفكر إذن أنا موجود". وهذا يقتضي أن وجود "الأنا" سابق ومستقل عن وجود العالم وعن أي وجود آخر. ومن هنا كان كل وجود غير وجود "الأنا" هو "آخر" بالنسبة لها، وبالتالي فعلاقة التغير هي علاقة بين الأنا والآخر ابتداء: سواء كان هذا الآخر هو الأشياء المادية المحسوسة التي يتوقف وجودها على يقينه بوجودها، أو كان الشيطان الذي افترض أنه قد يكون هو الذي ضلله فصار يشك في كل شيء أو كان هو الله الذي اطمأن هذا الفيلسوف إليه أخيرا باعتبار أنه لا يمكن أن يضلله -لكون فكرة الله في ذهنه تشير إلى كائن منزه من الخداع والتضليل ومن ثم جعله ضامنا

Abstract: Our study will throw light , in an objective way and far from the logic of passion, on the question of the other in Islam .So , it belongs to the studies that are about peoples and their views about the other.

This problem recently drew several researcher's attention because of the current communities complexity.

We will try to answer to the following questions:

-How did Islam tackle the question of otherness?

-Does Islam differ from the other religions in its relations with the other?

-What are the foundations that underpin its perception of the other?

In order to clarify this idea , we chose the Islamic thinker «Mohamed Emara» who deals with the question of the self and the other at different levels and various studies , in order to refute the widespread thesis in the West that consists in considering Islam as a religion marked by intolerance and the negation of the other.

Keywords : Islam – Mohamed Emara – The self – The other –The otherness.

ليقينه ذاك الخ. وبعبارة عامة إن الشبكة التي يرى "العقل الأوروبي العالم من خلالها وبواسطتها شبكة تهيمن فيها علاقة أساسية هي علاقة "الأنا" و"الآخر"، لا علاقة "آخر" "بآخر"...وما يؤسس مفهوم الغيرية في الفكر الأوروبي ليس مطلق الاختلاف، كما هو الحال في الفكر العربي، بل الغيرية في الفكر الأوروبي مقولة تؤسسها فكرة "السلب" أو النفي. La négation فـ"الأنا" لا يفهم إلا بوصفه سلبيًا، أو نفيًا لـ"الآخر".¹ في حين أن لفظ "آخر" في العربية هو وصف على صيغة "أفعل" بمعنى متأخر فـ"الآخر" هو من يأتي متأخرًا في الترتيب، ترتيب الأشياء وترتيب الكلام، ومنه الآخر بالكسر. وكذلك لفظ "غير" فهو ليس اسمًا وإنما هو "من حروف المعاني يكون نعتًا ولا يكون بمعنى لا...ويكون بمعنى سوى، والجمع "أغيار" وهي كلمة يوصف بها ويستثنى، وأصلها من التغير، وتغايرت الأشياء: اختلفت (قاموس لسان العرب). وإذا فكلمة "آخر" مثلها مثل "غير" لا تفيد في العربية النفي ولا السلب وغنما تفيد معنى الاختلاف لا غير. ومن هنا فـ"الأنا"، أو الذات، في الفكر العربي الإسلامي يتم التعرف إليها عن طريق الإيجاب والاثبات، وليس عن طريق النفي والسلب، وذلك بوصفها موجودة أولاً، ثم بذكر الصفات المميزة لها التي بها تختلف عن الذوات الأخرى. ومفهوم الهوية في الفكر العربي الإسلامي يتحدد بالوجود، وجود الذات وبالصفات، أما الأغيار فليسوا ضروريين إلا من أجل إيضاح الفروق والاختلافات².

ومن المفيد الإشارة إلى أن اللغويين يعرفون " معنى الذات بأنها: ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه "ذات الشيء" نفسه وعينه وجوهره. أما الفلاسفة وأهل الاصطلاح فإنهم يحددون الذات بأنها: ما يقوم به غيره سواء كان قائمًا بنفسه كزبد في قولنا: زبد العالم، أو كان قائمًا بنفسه كالسواد في قولنا: رأيت السواد الشديد. كما تطلق لفظة الذات على الماهية بمعنى ما به الشيء هو هو، ويراد به حقيقة الشيء ويقابله الوجود. من هذا يتبين أن الآخر هو غير الذات، ولكنه قد ينعكس فيها ويتمظهر بمظاهر عدة"³

وبالنسبة للفكر العربي فقد عرف إشكالية الأنا والآخر منذ القرن التاسع عشر الميلادي تحت تسميات مختلفة مثل الشرق والغرب، الإسلام والغرب، دار الإسلام ودار الحرب حيث "كانت سنة 1798 تاريخ الانطلاق الشديد في عالم التقدم والوعي، وقد ازداد احتكاك الشرق بالغرب في الكمية والكيفية، واشتدت حركة البعثات، ولما تولى إسماعيل زمام الأمور في مصر تعددت المدارس والمطابع وسائر أسباب النهضة، وتقاطر الأجانب إلى البلاد، ووافق ذلك اضطهاد العثمانيين للبنانيين والسوريين، فكثرت المهاجرون منهم إلى الديار المصرية حيث وجدوا ميدانًا واسعًا للعمل، وحيث كانوا من أركان النهضة، فأنشأوا الصحف والمجلات الراقية. وفي تلك الأثناء

¹ - محمد عابد الجابري، مفهوم الأنا والآخر، ينظر: http://www.aljabriabed.net/maj11_moiautre.htm

² - محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1997، ص194-195

³ - حسن مجيد العبيدي، من الآخر إلى الذات-دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة والفكر الفلسفي العربي المعاصر، ط1، 2008، ص5

تسرّبت أسباب النهضة إلى سائر البلاد العربية، وانطلقت حركة التصنيف وإنشاء الكتب وإحياء المخطوطات بالطباعة، وأنشئت الجامعات الكبرى: في بيروت الجامعة الأمريكية سنة 1866، وجامعة القديس يوسف سنة 1874، وفي مصر الجامعة المصرية سنة 1906، وفي دمشق الجامعة السورية في عهد فيصل بعد الحرب الكونية الأولى.

وانطلقت حركة الصحافة فكانت مدرسة سيارة للتثقيف والترجمة¹ وقد أدى هذا الاتصال والاحتكاك بالغرب إلى تنامي الوعي بالاختلاف بين الذات والآخر و"بدأ سؤال الهوية يورق الإنسان العربي نتيجة احتكاكه بالآخر، الذي سبقه حضاريا، وبدأ يهدد وجوده، حين زحف إلى الشرق مستعمرا. إذ إن المرء لا يدرك أهمية هويته، إلا في لحظة مأزومة. يواجه فيها المختلف، عندئذ يرتد إلى مكوناته الأصلية، التي تمنحه الإحساس بوجوده، أي بتميزه واختلافه عن الآخر، فيحس بضرورة الحفاظ على هذه المكونات، مهما كانت التحديات، إذ كلما احتدت المواجهة مع الغير، زاد المرء تمسكا بمكونات هويته وخصوصيته. حتى تكاد تصبح "أنا" وهذه المكونات شيئا واحدا.² و"التمأمل في الخطاب الفكري الثقافي في مشروع النهضة العربي يجد أن مشكلته الأساسية تكمن في وقوعه بين رغبة الاستقلال والانسجام الذاتي من ناحية، ورغبة التكيف مع المفاهيم والأفكار الجديدة التي يرى في كثير من الأحيان أنها تعجى على حساب الالتحاق بالواقع والالتصاق به"³ ولذلك "عُبا عصر النهضة العربي نفسه للمنافحة، أي للدفاع عن معظم القيم الموروثة عن الماضي الزاهي وللتأكيد على استمرارها في الفاعلية وعلى قدرتها على المواجهة، ومن ناحية أخرى-وذلك هو التيار التحديثي بمختلف تلاوينه-صَبَّ عصر النهضة العربي جهوده على النقد، أي على تشريح مظاهر التأخر في المجتمع العربي وعلى بيان قصور تلك القيم في انتشاله من وهدهته وعلى ضرورة التغيير في الفكر وفي الواقع، في الأذهان وفي الأعيان، حتى يستوي الشرق من جديد ندا للغرب ويستعيد مركزته المهيمنة"⁴

وبما أن إشكالية الآخر ما تزال تشغل مساحة واسعة في خريطة الفكر العربي المعاصر في محاولة جادة لفهم حقيقة الآخر، والبحث عن السبل الكفيلة بتنشيط الحوار الجاد والمثمر معه. فقد اختار بحثنا دراسة صورة الآخر في الإسلام من منظور المفكر محمد عمارة على اعتبار أنه من الأسماء البارزة في الفكر الإسلامي المعاصر، والداعية إلى الوسطية، وإلى محاوره الآخر والتي هي أحسن، والعمل على إبراز سماحة الإسلام. ولأجل ذلك تم تقسيم البحث إلى أربعة مباحث بالإضافة إلى خاتمة تحوّل ما تمّ التعرّض له في البحث، وتجلت المنهجية كالآتي:

- تعيين الآخر عند محمد عمارة.

- دواعي الاهتمام بالآخر.

¹- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج4، أدب النهضة الحديثة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص15.

²- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2013، ص13.

³- رزان إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2003، ص09.

⁴- جورج طرابيشي، من النهضة إلى الزدة-تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقي، لبنان، ط1، 2000، ص10.

-مركزات صورة الآخر في الإسلام

- معالم صورة الآخر كما تتجلى في الإسلام.

١/ تعيين الآخر عند محمد عمارة :

تناول محمد عمار موضوعه الآخر في مواضع عدة من كتبه ومقالاته الكثيرة، ونخص بالذكر منها كتاب "الإسلام والآخر" "الإسلام والغرب" و"العطاء الحضاري للإسلام" و"السماحة الإسلامية" و"هذا هو الإسلام". وعلى الرغم من الاهتمام بدراسة الآخر لديه، والذي قد يلحظه كل قارئ لأعماله أو متابع لحواراته ومناظراته إلا أننا لا نجد يولي كبير اهتمام لتحديد لفظ الآخر وضبط فهمه غير أنه يمكننا من خلال تتبع مفهوم الآخر في أغلب كتاباته أن نتبين أن الآخر لدى محمد عمارة يتحدد بمفهومين أولاً: آخر خارجي.

ثانياً: آخر داخلي:

أما فيما يخص الآخر الخارجي فالمقصود به الغرب. وليس يخفى " أن الغرب كدول وتيارات وواقع "جغرافي- سياسي" ليس واحداً متوحداً إلا بالجهة الجغرافية التي تعيش عليها حالياً معظم المجتمعات الغربية المتدينة مسيحياً، وهي الجهة الواقعة إلى الغرب من مركز الحضارة الإسلامية (مخطط الأديان والرسالات: فلسطين- شبه الجزيرة العربية)، كما أن الطوائف بين مختلف التيارات والأنظمة الفكرية المسيطرة هناك متفاوتة ومتغيرة، والأمزجة مختلفة ومتقلبة.. فما يمكن أن تشاهده وتتفاعل إيجاباً أو سلباً معه في إنجلترا مثلاً قد يبدو مختلفاً عن فرنسا، وهما بدورهما مختلفان عن ألمانيا وإيطاليا.. فنحن - إذاً - نلاحظ وجود حالة تنوع في طبيعة النظرة للأديان والثقافات والقوميات.. أي أنه يوجد أكثر من تيار ثقافي وديني مؤثر في العالم الغربي فيما يخص العلاقة مع الإسلام، ومع الحضارة العربية الإسلامية:

- فهناك التيار الديني المتطرف (المشابه - في السياق العام - للتيارات الأصولية المتشددة والمتعصبة في اجتماعنا الديني الإسلامي) الذي لا يزال ينظر إلى الإسلام بنفس النظرة القروسطية القديمة التي كانت تعتبر الإسلام ديناً غير سماوي، وأن محمداً (ص) ليس نبياً، وأن عقائده التي جاء بها عبثية ولا معنى لها لأنها تنكر الحقائق المسيحية. والواضح أن هذا التيار ضعف في الغرب الحديث، ولم يعد له أتباع كثيرون، بسبب رسوخ قيم الحداثة العقلية التي أفضت إليها قيم ومبادئ عصر النهضة الأوروبي.

وهناك أيضاً التيار العلماني المسيطر حالياً على واقع وحياة وسياسات المجتمعات الغربية عموماً، والمتحرر تقريبا من نمطية وأوهام التفكير الديني المسيحي واليهودي القديم (الذي لا يعكس حقائق بقدر ما يحرف وقائع ويخلق أحداثاً، ويقرر قيماً ومبادئ)¹.

ومن هنا ندرك أن الآخر الخارجي يمثل لدى محمد عمارة الغرب سواء في شقه المؤمن أو في شقه العلماني بمعنى أن الآخر الخارجي هو الغرب المختلف عقائدياً والذي هو

¹- نبيل علي صالح، الغرب، كمنعنى وإشكالية واقعة، الوحدة الإسلامية، السنة 13، العدد 2014، 148.

غير مسلم، وبالتالي فليس الغرب إطارا جغرافيا بل هو مجموع القيم والمبادئ الأساسية التي جاء بها أي أن الغرب يتضمن.

مجموع الإنجازات التي تستفيد منها الإنسانية قاطبة وهذا ما يفسر استخدام محمد عمارة في نصوصه لعبارة "الغرب الحضاري". ومن المعلوم أنه "عندما بدأت الأمة العربية تستيقظ تدريجيا من سباتها التاريخي الطويل ابتداء من القرن التاسع عشر تحت ضربات مدافع الاستعمار الغربي وجدت أن العالم قد تغير، وتحولت أحواله وموازينه وتراتبته. وقد تولد عن هذه اليقظة المتدرجة تشكل وعي شقي لدى النخب والعامّة على السواء قوامه التصادم الحاصل بين الصورة المثالية عن الذات في الوعي وواقع تؤثر كل ملامحه ومعطياته الواقعية الملموسة على الدونية والتخلف والتبعية".¹

وعليه "أصبح الآخر/ الغرب يعني بالنسبة إلينا حافزا للتجديد ووجها من أوجه التماهي مع ذواتنا، شئنا ذلك أم لم نشأ، وعينا ذلك أم لم نع. هنا بدا التجديد، الذي شرع به الفكر العربي والإسلامي حديثا، محاولة للنهوض بإزاء الغرب المتفوق، وأصبح ضربا من الإصلاح والتحديث، بل فهم على أنه محاولة لإعادة البناء، بكل ما تتطلبه ذلك من إعادة تحديد الهوية وإعادة اكتشاف الذات واكتساب وعي مختلف بها، كما يتبين من محاولات الأفغاني وعبدو ومحمد إقبال. لذلك لم تعد مشكلة التجديد تتلخص في البحث عن الصيغ والقواعد التي تسمح بتكييف النصوص وتطبيقها على الواقع. لقد ولدت التجربة الحديثة، وفي مختلف مجالات الحياة، وقائع تتطلب أنماطا جديدة من المعالجة وتستدعي مراجعة بنية الثقافة نفسها".²

وإذا كان هذا شأن الآخر الخارجي، فإن الآخر الداخلي لدى محمد عمارة شبيه بالآخر الخارجي لأنه يشاركه في اعتقاده وقناعته. يقول في ذلك محمد عمارة: "نحن فرضت علينا منذ الاحتكاك بالحضارة الغربية الحديثة مرجعية وضعية علمانية لا دينية تراحم المرجعية الإسلامية، وهذه أصبحت من النوازل ونحن لا نستطيع أن نلغي أن في مجتمعاتنا آخر لا ينطلق من المرجعية الإسلامية، ونحن لا نستطيع أن نصادر فكر هؤلاء الناس، لأن القرآن يعلمنا بمنهج أن مصادرة الآخر لا تحل المشكلة، بل القرآن هو الذي كان يستدعي ما لدى الآخر، حتى الآخر عندما يكون دهريا وعندما يكون مشركا يقول له: قل هاتوا برهانكم، هل عندكم من علم أو أثارة من علم؟ بينما الذين كانوا يصادرون الفكر الآخر هم المشركون، هم الذين كانوا يقولون لا تسمعوا لهذا القرآن، إذا منهج القرآن يعلمنا أن فكر الآخر وضعه القرآن في سورة وآياته نتعبد هبها حتى الآن، قلوا ساحر، قالوا مجنون، قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا، اجعل الآلهة إله واحدا، كل هذه المقولات التي كان يقولها الآخر،

¹ - محمد سيلا، **الحداثة وما بعد الحداثة**، دار توفال، المغرب، ط 2007، ص 95.

² - علي حرب، **التأويل والحقيقة**، دار التنوير، بيروت، 2007، ص 187-188.

الدهري والمشارك لم يتجاهلها الإسلام، لم يغض الطرف عنها، لم يدر ظهره لها، وإنما أخذها وحاورها وفندها، ولذلك نحن الآن نعيش مع مرجعيات غير إسلامية ولا نستطيع أن نتجاهلها وإنما علينا أن ندرس هذه المرجعيات، وهذه الثقافة وهذه الأطروحات وأن نحاورها وأن نرى الإسلام في ضوءها وأن نراها في ضوء الإسلام¹ يتضح بهذا أن الآخر لدى محمد عمارة لا يمثل الغرب وحده بل يمثل كل من لا يعتمد المرجعية الإسلامية كمصدر في رؤيته للعالم وللأشياء، وهو ما يمثل الآخر الداخلي الذي ينتمي إلى دار الإسلام وهو ليس بالمسلم، والذي ليس أجنياً بشكل مطلق. وبالتالي فإن البعد الديني هو المُشكل للغيرية التي تتعمق بازدياد عدم الاستناد إلى المرجعية الإسلامية. ولعل معرفة هذا الآخر الداخلي هي التي جعلت محاولة معرفة الآخر بشكل عام مسألة مشروعة، وإمكانية دراستها في إطار علاقة استبدالية تسمح بمعرفة الإسلام من خلال الآخر، ومعرفة الآخر من خلال الإسلام. وما دمنا نحاول إبراز صورة الآخر في الإسلام من منظور محمد عمارة وتبيان نمط هذا التفكير، فإن الأمر لن يقتصر على استجلاء عناصر الصورة عنده بمعزل عن شروط تكوينها.

ب/دواعي الاهتمام بالآخر:

لقد سبق أن أشرنا إلى أن جدلية الإسلام والآخر أو الإسلام والغرب قد طرحها الفكر العربي الحديث منذ القرن التاسع عشر مع الشيخ رفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وغيرهم. فلماذا هذا الاهتمام الشديد بإعادة طرحها من لدن محمد عمارة؟ وتقليب النظر فيها وإعادة التفكير في مضامينها؟ يمكننا أن نجد الإجابة عن تساؤلنا في العنوان الفرعي الذي وضعه محمد عمارة لكتابه "الإسلام والآخر" حيث جاء العنوان الفرعي للكتاب حاملاً لتساؤل "من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟"، وهو تساؤل يحمل في طياته إجابته. يقول محمد عمارة في مقدمة الكتاب: "المسلمون -وأحياناً الإسلام - متهمون في الكثير من دوائر الفكر الغربي وكل دوائر الفكر العلماني، بالتعصب المقيت وإنكار الآخر وتكفير الآخرين. ولقد شاعت وتشيع هذه الاتهامات على ألسنة وأقلام غلاة العلمانيين في بلاد الإسلام يستوي في ذلك المسلمون وغير المسلمين من هؤلاء العلمانيين الغلاة"² وهذه الحقيقة التي يقرها محمد عمارة لا يختلف حولها اثنان إذ أصبح الإسلام مرادفاً للإرهاب والموت في عيون الغرب. وهي بطبيعة الحال صورة غير موضوعية و"بدون مضمون محدد كشيء غير مرغوب فيه، لابل كخصم وعدو. فهو يتهتم بتحديد ما ليس بما هو في نفسه اليوم بل بما يحتمل أن يكون غداً أو بعد غد، بعد أن انتهت

¹ - محمد عمارة، من كلمة ألقاها بمناسبة تكريمه بمنتدى الإنترنت الثقافي الأدبي بجدة بالمملكة العربية السعودية بتاريخ 2001-40-90

² - محمد عمارة، الإسلام والآخر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2001، ص. 05

الحرب الباردة و زال الخطر الشيوعي. إنه إذا الإسلام كما يصنع صورته المحللون السياسيون، في أمريكا وأوروبا، المولعون بوضع سيناريوهات للمستقبل بهدف تعيين "العدو" الذي سيحل محل الشيوعية، وكأن الحياة لا تستقيم بدون "عدو".¹ وليس يخفى أن الإعلام الغربي قد حقق لنفسه "في ظل ثورة الاتصالات والمواصلات مكانة متميزة وأثرا واضحا مباشرا سواء على المستويات القيادية العليا في الغرب الأورو-أمريكي أم على مستوى الناس العاديين من خلال قدرته الفكرية والتقنية على إحداث الأثر الذي يريده، وتأتي أهمية الإعلام في هذا العصر من أنه أكبر وأهم وسائل الاتصال الفكري والثقافي كونه يتجه لكل الفئات العمرية والثقافية ولله القدرة على تكوين وتوجيه الفكر والمشاعر إزاء القضايا المجتمعية بشكل عام".²

ومن هنا يتبين لنا أن اشتداد الحملة ضد الإسلام، واعتباره مصدر العنف والإرهاب في العالم هي التي دفعت محمد عمارة إلى إعادة التفكير في علاقة الإسلام بالآخر، وتبيان الصورة الحقيقة التي يحملها الإسلام عن الآخر عبر تاريخه الطويل.

ج/مرتكزات صورة الآخر في الإسلام:

ينطلق محمد عمارة في رسمه لصورة الآخر في الإسلام من مجموعة من المرتكزات المترابطة فيما بينها، والتي يمكننا توضيحها كالآتي:

1- إن المسلمين هم ضحايا الإنكار بمعنى "إنكار حق الآخر في الوجود، والسعي إلى استئصاله، أو على الأقل استئثاره من المشاركة في العمل العام"³ ومن أدلة ذلك في رأيه أن الكثير "من البلاد الإسلامية - التي أخذت بالتعددية الحزبية- تسمح بكل الأحزاب التي تمثل "الأيدولوجيات" لكنها تستثني الإسلاميين، الذين ينطلقون من الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وإسلامية الدولة والاجتماع. ومسموح لأي جماعة أو جمعية أو حزب يرى الاشتراكية هي الحل..أو الليبرالية هي الحل. أو القومية هي الحل. أما أن ترى جماعة أو جمعية أو حزب أن الإسلام هو الحل.. فذلك محظور وممنوع...وكل الدول "الديمقراطية" في الغرب. "الديمقراطي" ترضى عن نتائج الانتخابات النيابية والنقابية في العالم الإسلامي يمينا كانت أو يسارا توجهات الفائزين في هذه الانتخابات، اللهم إلا إذا جاءت صناديق الاقتراع بالإسلام والإسلاميين. فهنا يصل الإنكار والإقصاء والاستئصال. إلى حد تأييد "الديمقراطيين" الغربيين للانقلابات الفاشستية على إرادة الشعب والانتخابات الديمقراطية الزبئية. وكذلك مع الحق الفطري والديمقراطي في "تقرير المصير"...الغرب" الديمقراطي" يستثني الشعوب المسلمة من الحق الطبيعي والديمقراطي في تقرير المصير".⁴

¹ - محمد عابد الجابري، مسألة الهوية : العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1997، ص178

² - حميد حمد سعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل، عمان، الأردن، 2002، ص118.

³ - محمد عمارة، الإسلام والآخر، ص11.

⁴ - محمد عمارة، الإسلام والآخر، ص13.

- 2- تقوم الرؤية الإسلامية العقديّة والفكرية حسب رأي محمد عمارة على التنوع والتميز والاختلاف ذلك أن الواحديّة والأحديّة هي للذات الإلهية فقط.
- والتعنّد والاختلاف " هو القانون التكويني الذي يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات، في الإنسان. والحيوان. والنبات.. والجماد.. وفي الأفكار والفلسفات و"الأيدولوجيات" وفي الشرائع والملل والديانات"¹ وبهذا تكون التعددية وفق تصور محمد عمارة سنة كونية وآية من آيات الله. وبالتالي فتصور الإسلام للعالم قائم على الاعتراف بتنوع الإنسانية في الألسنة واللغات والأجناس والألوان والقوميات الأمر الذي يترتب عليه اعتراف الإسلام بالآخر.
- 3- يعترف الإسلام بالآخر " ومن ثم يتعارف عليه، ويتعايش معه، لا كمجرد واقع لا فكاك منه، وإنما باعتبار هذا الاعتراف وهذا التعارف سنة من سنن الله، سبحانه وتعالى، وإرادة تكوينية لخالق هذا الوجود."²
- 4- يقوم التفاضل والتفاوت في الإسلام على معايير الصلاح والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يقوم على العنصرية.
- 5- وضع الإسلام لبنات عالمية إنسانية جديدة من خلال التأكيد على أن الله هو رب العالمين وليس رب شعب محدد أو أمة معينة.
- 6- التكريم الإلهي للإنسان في الإسلام هو تكريم مطلق، وليس حكرا على جنس من الأجناس أو دين من الأديان.
- 7- نقلت الشريعة الإسلامية التشريع الإلهي من المحلية إلى العالمية.
- 8 - يقوم الإسلام على السماحة التي تعني "العطاء بلا حدود وهي المساهلة واللين في الأشياء والمعاملات دونما انتظار مقابل أو ثمن، أو حاجة إلى جزاء"³ وهو الأمر الذي جعل "الدولة الإسلامية" متندى "تتعدد فيه الديانات والمذاهب واللغات والقوميات والأجناس والألوان على امتداد تاريخ الإسلام"⁴.
- 9- يقرر الإسلام أن الحرب استثناء ويرفض كل الفلسفات والأنساق الفكرية التي تزعم أن العنف والقتال غريزة إنسانية إذ القتال في الإسلام "شذوذ عن طبيعة الفطرة السوية. وأنه مكتوب ومفروض على هذا الإنسان بل ومكروه من الإنسان الذي يرتقي إلى المستوى الحقيقي للإنسان...قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة غير المسبوقّة، عندما قال: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم" (البقرة-رقم216)⁵

¹- نفسه، ص.17

²- نفسه، ص.18

³- محمد عمارة، السماحة الإسلامية، دار نهضة مصر، ص.09

⁴- نفسه، ص.35

⁵- نفسه، ص.10

10- تقوم علاقة الأنا والآخر في الإسلام على التفاعل والتبادل، ولا تقوم على التبعية أو على الانفلاق والعزلة.

ح- معالم صورة الآخر في الإسلام:

ينطلق محمد عمارة في تناوله لصورة الآخر في الإسلام -كما أوضحنا سابقا- من مفهوم أن الوحدة الإنسانية هي آية من آيات الله. وقد دلت آيات كثيرة من القرآن الكريم على ذلك مثل قوله -جلّ شأنه-:

- "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ومنها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا" (سورة النساء- الآية رقم 1).
- "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها" (سورة الأعراف، الآية رقم 189)

- ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (سورة الإسراء، الآية رقم 70).

تقف هذه الآيات في مجملها وهي تجلي سماحة الإسلام كما تشير إلى الوحدة الإنسانية القائمة في الإسلام على تساوي جميع البشر في التكريم الإلهي وفي التكليف والحساب والجزاء. وبالتالي فإن الإسلام ينظر إلى الإنسانية جمعاء بوصفها الإطار الذي يحوي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.

ووفق منظور محمد عمارة فإن الإسلام قد سلك "تعدد النبوات والرسالات" ومن ثم تعدد أمم هذه الرسالات وكذلك تعدد الشرائع الإلهية في إطار وحدة أسرة دين الله الواحد، الذي تتعدد فيه الشرائع مع وحدة الدين.. فكان الإسلام - وحده- هو الرسالة التي تؤمن أممها بكل النبوات، والتي لا تفرق بين أحد من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام. وكان القرآن الكريم هو الكتاب المصدق بكل الكتب السماوية، والجاعل من الشرائع السماوية السابقة- شريعة من قبلنا- جزءا من الشريعة الإسلامية الخاتمة¹. ولعل ما يوضح معالم صورة الآخر في الإسلام هو توضيح علاقاته بالمعتقدات المختلفة:

1- صورة الآخر اليهودي في الإسلام:

إذا كانت اليهودية ترفض الآخر، وتزعم أن اليهود وحدهم هم "شعب الله المختار" وأنهم أبناء الله وأحبائه، وأن الخلاص يوم القيامة لهم وحدهم دون بقية الشعوب، فإننا نجد الإسلام على النقيض من ذلك فصورة موسى عليه السلام في القرآن الكريم هي صورة حبيب الله، ونبي من أنبيائه. وقد نال اليهود في ظل الدولة الإسلامية كل الاعتراف بحقوقهم حيث ترك المسلمون "أبواب المدن الإسلامية والولايات الإسلامية مفتوحة أمام اليهود، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. فعادوا للعيش في مدينة القدس- عقب فتح الإسلام لها- بعد أن

¹ - محمد عمارة، الإسلام في مواجهة التحديات، دار نهضة مصر، ط 1، 2007، ص 128

كانوا مطرودين منها. وأحسن إليهم الدولة الإسلامية على حين كان الاضطهاد واللعن والاختيار والطرْد والقتل من نصيبهم في مختلف الحضارات والدول غير الإسلامية التي عاشوا فيها.¹

2- صورة الآخر النصراني في الإسلام:

يقدم القرآن الكريم صورة عيسى بن مريم عليهما السلام بوصفه الوجيه والمبارك والمؤيد بالبينات وروح القدس وبالكتاب والحكمة. ونتيجة هذا التكريم الإلهي كانت صورة النصراني في الدولة الإسلامية تجسيدا للموقف القرآني حيث "قررت لهم الدولة الإسلامية كامل المساواة في الحقوق وواجبات المواطنة بإطار الأمة الواحدة والرعية الواحدة"² وقد ثبت تاريخيا أن الفتح الإسلامي نقذ نصارى القبط بمصر من الهلاك والزوال إذ أن "قبل هذا الفتح كان الغزو والقهر الإغريقي والروماني والبيزنطي - الذي استمر نحو عشرة قرون - من فتح الإسكندر الأكبر (356 إلى 324 ق.م) في القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتح الإسلامي في القرن السابع للميلاد- كان قد بلغ بمصر حد "الحرمان الحضاري" عندما حرّمها من الثقافة الوطنية ومن اللغة القومية- التي قهرت فكّنت بالحروف اليونانية- وذلك فضلا عن الحرمان من سياسة الدولة وسلطانها"³.

وهذا الاعتراف بالآخر الديني في الإسلام وفق منظور محمد عمارة ليس وفقا على أهل الديانات السماوية بل يشمل الديانات الوضعية حيث عاملهم معاملة أهل الكتاب. وعندما "فتح المسلمون فارس- وأهلها مجوس، يعبدون النار، ويولون بالهين، أحدهما للخير والنور، والثاني للشر والظلمة- عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (40ق.هـ- 32هـ- 584-644) رضي الله عنه، أمرهم على "مجلس الشورى"-مجلس السبعين-الذي كان يجتمع بمسجد المدينة، في مكان محدد، وأوقات محددة.. وكان عمر يجلس معهم فيه، ويحدثهم عما ينتهي إليه من أمر الآفاق والولايات والأقاليم- فقال لأعضاء مجلس الشورى:- كيف أصنع بالمجوس؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف (44ق.هـ- 32هـ- 580-652م) فقال: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ستوا فيهم ستة أهل الكتاب". فعوملت الديانات الوضعية معاملة الكتائية... وجاء الفقهاء فقعدوا هذه السنة النبوية، وهذا التطبيق الراشدي لها، فقالوا: لقد كانت لهذه الديانات كتب ثم ضاعت."⁴

وضمن هذا المعطى من الطرح تتبين مع محمد عمارة أن الإسلام يعترف بالآخر، ولا يرفضه، بل إضافة إلى ذلك يمكنه من إقامة عقائده. وجعل ذلك فريضة إسلامية. ولم "يقف بذلك الأفق السامي، عند "الآخر" الذي يبادل الإسلام اعترافا باعتراف، وقبلولا بقبول، وإنما صنع مع "الآخر" الذي ينكر الإسلام ويجحده ويكفر بمقوماته- وكل الآخرين، الذين ينكر

¹ - محمد عمارة، الإسلام والآخر، ص. 29.

² - محمد عمارة، الإسلام والآخر، ص. 79.

³ - نفسه، ص. 84.

⁴ - محمد عمارة، العرب والإسلام- أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟ مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2004، ص. 37.

كل واحد منهم صاحبه، يجتمعون جميعا، حتى هذه اللحظة، على إنكار الإسلام وجوده والكفران به.. فلا يؤمنون بأن قرآنه وحي سماوي، ولا بد بأن رسوله مبعوث إلهي، ولا بأن ما جاء به دين إلهي ومع كل ذلك، وبرغمه، كان هذا هو موقف الإسلام-غير المسبوق وغير الملحق في الاعتراف بهم، والقبول لهم، ووصل إلى حد جعلهم جزءا من "الذات"، ذات الدين الإلهي الواحد وذات الأمة الواحدة. بل وجعل تمكينهم من حرية إقامة جودهم بالإسلام شرطا من شروط اكتمال عقيدة الإسلام، وإسلامية دولة الإسلام¹.

وفي المقابل يرى محمد عمارة أن علاقة اليهود بالآخر هي علاقة قائمة على الكراهية واللعن والإنكار، والأغرب من ذلك إبادة الآخر هي عندهم تكليف إلهي "والآن اقتل كل ذكر بين الصغار، وكل امرأة عرفت رجلا ضاجعها" (سفر الأعداد: 31:17) "لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض مباركا تكون فوق جميع الشعوب.. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عينك عليهم" (سفر التثنية: إصحاح: 7، 14، 6:7-16)² وبالنسبة للنصرانية فقد بادلت اليهودية الإنكار نفسه و"طبقت على اليهود ذلك المبدأ الظالم الذي ابتدعه ونسبوه - زورا وبهتانا- إلى الذات الإلهية، عندما زعموا أن الله يعاقب الخلف بذنوب السلف حتى أربعة أجيال.. "فالرب -عند اليهود- لا يدرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع" (سفر العدد: إصحاح: 14-8) طبقت النصرانية على اليهود هذا "المبدأ" الظالم، وامتدت به إلى الأبد، فوضعت في صلواتها لعن كل أجيال اليهود بذنب موقف أجدادهم الأولين من المسيح عليه السلام... ولقد تجسد هذا الإنكار المتبادل للآخر، في الواقع والممارسة والتطبيق، ثورات واضطهادات طفحت بها كتب التاريخ حيثما وجد اليهود والنصارى في أي مجتمع من مجتمعات التاريخ³. وهذا الإنكار والرفض يجده محمد عمارة قد تجسد في الحضارة الغربية في "بداياتها الإغريقية وفي طورها الروماني. ففي "أثينا"- التي ينسبون إليها ابتداء الديمقراطية- كانت هذه الديمقراطية: احتقار القلة من الفرسان الأشراف الملاك، الذين يجتمعون في أثينا، يمارسون الديمقراطية، ويتمتعون بجميع حقوقها. أما غيرهم من البشر، فإنهم كانوا برأيه- "برابرة وهمجا"، لاحظ لهم في الديمقراطية، ولا نصيب لهم من أية حقوق للإنسان. وكذلك كان حال هذه "الحضارة" في طورها الروماني.. فعلى الرغم من إبداعها القانوني، الذي تبلور في "مدونة" الإمبراطور "جستينان" (527-665م) إلا أن هذا القانون

¹- نفسه، ص. 38.

²- محمد عمارة، الغرب والإسلام، ص. 28.

³- نفسه والصفحة نفسها

إنما كان من حقوق السادة الفرسان، والأشراف الرومان.. أما الشعوب الأخرى فلقد كانوا- برأيهم- "برابرة"، لاحق لهم في أن يطبق عليهم قانون السادة الرومان.¹ ويرد مجمل هذا التحصيل ليدل مدى ما ينتهي إليه الموروث الغربي من توصيف محمل بكراهية وإنكار الآخر. في مقابل الإسلام. وبالتالي فإن العالم قبل الإسلام لم يعرف ديناً أو حضارة تعترف بالآخر، وتحترم خصوصيته وحقوقه. ولقد بنى المسلمون حضارتهم "مشركين معهم في هذا البناء الحضاري كل الأقليات الدينية والثقافية، التي احتضنها الإسلام، وحررها من القهر الديني والحضاري، فأصبحت هذه الحضارة الإسلامية هي حضارة الأمة، على اختلاف مللها ونحلها ولغاتها ومذاهبها، الأمر الذي تفردت به هذه الحضارة الإسلامية بين الحضارات عندما أصبحت "إسلاميتها" جامعة للأقليات، وليست طاردة لهذه الأقليات."² مما يقف شاهداً في مجرى تاريخ الإنسانية على أن سماحة الإسلام احتضنت كل الشعوب وكل الأجناس دون تفرقة بسبب دين أو عرق مشيدة بذلك لبنات إنسانية جديدة قائمة على العدل والمساواة بين البشر. وبهذا ينتهي موقف محمد عمارة إلى مسلك يمتح من القرآن الكريم وما تحفل به آياته من اعتراف بالآخر واحترام لكامل حقوقه. وانطلاقاً من ثقافة كرست حضارتها لتجسيد مبادئ الإسلام.

وتبين مما سبق أن محمد عمارة ارتكز في تجليته لصورة الآخر في الإسلام على مبدأ الوسطية الإسلامية التي حسب نظره كفيلة بإخراجنا من غلو المركزية. والوسطية هي التي من خلالها يمكننا أن ندرك حقيقة الإسلام كما يمكننا أن نتجاوز مع الآخر. ويفيد التذكير بأن محمد عمارة قد انطلق في توضيحه لصورة الآخر في الإسلام من النص المؤسس للدين الإسلامي والذي هو القرآن الكريم كما اعتمد على المعطيات والوقائع التاريخية التي لا تترك شكاً في سماحة الإسلام الذي يعترف بالآخر، ويرى في التمايز والاختلاف سنة من سنن الله في الكون. وصورة الآخر في الإسلام على النحو الذي بحثه محمد عمارة تستدعي من المسلمين الفهم الجيد لمبادئ الإسلام السمحة من أجل تقديم الصورة المشرقة التي تحجبها اليوم عن عيون الآخر سوء الأوضاع وانتشار العنف في أكثر البلدان العربية والإسلامية.

خلاصة:

نستنتج مما سبق أن إعادة النظر في إشكالية الأنا والآخر عند محمد عمارة ضرورة لفهم ذاتنا في علاقاتها المتعددة والمركبة بالآخر. ويمكننا أن نحدد الركائز التي اعتمدها في توضيحه لصورة الآخر في الإسلام في النقاط الآتية:

1- مفهوم الآخر أصيل في دين الإسلام.

¹ - محمد عمارة، الغرب والإسلام، ص. 29-30

² - نفسه، ص. 08

- 2- ضرورة الاحتكام إلى القرآن الكريم وحقائق التاريخ الاسلامي في الكشف عن صورة الآخر في الإسلام.
- 3- الاعتراف بالآخر ليس أمراً طارئاً على الإسلام بل هو سمة ميزته عبر العصور.
- 4- إنه واقع ثابت بثبوت أدلته القرآنية من جهة، وبثبوتة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام.
- 5- الاعتراف بالآخر هو الذي أرسى دعائم الحضارة الإسلامية وشكل قاعدتها الصلبة.
- 6- إن الاعتراف بالآخر مشروط باحترام لغته ودينه وثقافته، وهو ما يمكن أن يتحقق من خلال مبدأ التسامح والمواخاة بين الشعوب.
- 7- الاعتراف بالآخر هو الاعتراف بالاختلاف، وذلك من أجل القضاء على فكرة تفوق الذات، ودونية الآخر.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- جورج طرايشي، من النهضة إلى الزدة-تمزيقات الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، لبنان، ط 1، 2000.
 - 2- حسن مجيد العبيدي، من الآخر إلى الذات-دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة والفكر الفلسفي العربي المعاصر، ط 2008، 1.
 - 3- حميد حمد سعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل، عمان، الأردن، 2002.
 - 4- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج 4، أدب النهضة الحديثة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1985.
 - 5- رزان إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق، عمان، الأردن، ط 1، 2003.
 - 6 - علي حرب، التأويل والحقيقة، دار التنوير، بيروت، 2007.
 - 7- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2013.
 - 8- محمد سبيلا، الحداثة ومابعد الحداثة، دار توبقال، المغرب، ط 2007، 2.
 - 9- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1997، 2.
 - 10- محمد عمارة، الإسلام والآخر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2001.
 - 11- السماحة الإسلامية، دار نهضة مصر.
 - 12 - الغرب والإسلام-أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟ مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط 2004، 1.
 - 13-الإسلام في مواجهة التحديات، دار نهضة مصر، ط 1، 2007.
- الدوريات:
- 1- نبيل علي صالح، الغرب، كمنعنى وإشكالية واقعة، الوحدة الإسلامية، السنة 13 العدد 2014، 148.
 - 2- المواقع الإلكترونية: تاريخ الاطلاع: 2015-04-06

1-http://www.aljabriabed.net/maj11_moiautre.htm

2-<http://www.wahdaiislamiya.com>

3- [http:// quoteroute.com](http://quoteroute.com)